الشواهد الشعرية وأغراضها الدلاليّة في تفسير الميزان للعلاّمة الطباطبائي

الاستاذ المساعد الدكتور
سيد حيدر فرع شيرازي
الاستاذ المساعد الدكتور
رسول بلاوي
جمهورية إيران الأسلامية
جامعة خليج فارس - بوشهر

الملخص

إنّ الشواهد الشعرية من أهمّ ما يعتمد عليها عادة في الدراسات الأدبية بالأخص إذا ما كان التفسير يعرف بالتفسير الأدبي فإنّ الشعر يستفاد منه بياناً للكلمات والعبارات القرآنية وإثباتاً للمعنى الذي يرومه المفسّر ولم يكن المفسّر يحظى به إلاّ إذا تذوّق الشعر والأدب. وعليه يظهر من تفسير الميزان للعلاّمة الطباطبائي أنّه بالإضافة إلى تذوّقه من الأدب وتمتعه به كان متمكنا من إبداء آراء سديدة يتحفها بدلالات وشواهد من الآيات قبل أن يعتمد على الشواهد الشعرية. وأما الشواهد الشعرية المعوّلة عليها في الميزان فإنّها متناثرة فيه وتختلف إلى البلاغة واللغة والنحو وموضوعات عامّة اجتماعية أخرى وغيرها. ومن مميزات الميزان أنه مُتحف بمباحث لغوية وأدبية من ضمنها الشواهد الشعرية التي يناهز عددها ١٧٢ بيتاً وللعلامة فيها إشراف ودقّة كما أنّه لا يولي بها الاهتمام إلا إذا اقتضت الحاجة في إيضاح بعض الآيات. والذي يذكره من الشواهد قد يذكر مصدره مثل ما يحيل أحياناً بعضها إلى الكشاف أو المجمع أو المفردات وقد لا يصرّح فيه بمصدر.

الكلمات المفتاحية: الميزان، الشواهد الشعرية، التفسير، الطباطبائي.

١. المقدمة

إنّ الميزان كتفسير أدبي له حلبة واسعة في المجالات الأدبية قلّما يجري الحديث عنه من هذه الجهة وقد تفحّصنا فيه أدباً فوجدناه زاخراً بالمباحث اللغوية والبلاغية والنحوية وحتى في البحوث الروائية تلقينا فيها شواهد أدبية لا بأس بذكرها وهذه المباحث

المختلفة تطفو كتاباً ضخماً يروق الباحثين إذا تناولناها بحثاً ودراسة لكن الذي يجدر إليه التنبيه ههنا هو الاكتفاء بلمّة خفيفة من تلك المباحث الجمّة إذ لا مجال فيها للدراسة الموسّعة.

إن من المباحث المهمّة التي يعتمد عليها عادة في البحوث الأدبية عامّة هو الشواهد الشعرية التي لا يمكن الاستغناء عنها في إثبات الرأي ودلالته وقد اغترف العلاّمة غرفة ملموسة من تلك الشواهد في تضاعيف تفسيره. وبما أنّ هذا الأمر لم يكن معروفاً لدى الباحثين فجعلنا البحث عنها في الميزان تعريفاً بها للمتعلّمين فعليه قمنا باستخراج الشواهد كلّها في تفسير الميزان وأحصيناها عدداً وقسمناها موضوعاً فالذي انتهينا إليه أنّ الشواهد فيه تبلغ ١٧٩ بيتاً من بين شاهد لغوي، ونحوي وبلاغي وروائي وغير ذلك.

هذا وقد وجدنا من المجلّدات للتفسير ما لم يتجاوز بيتاً واحداً كالمجلد الخامس عشر عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ ﴾ (المؤمنون/٩٩) حيث تمّ الاستشهاد في تفسير «ارجعون» بمعنى ارجعني ارجعني ارجعني لأنّه قيل: «هو جمع الفعل و يفيد تعدد الخطاب كما قيل في قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

أي قف قف نبك. (الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١٥، ص٧١)

وهناك من المجلدات للتفسير ما نجد فيه حتى بيتاً واحداً كالمجلد العاشر والمجلد الثاني عشر.

وهناك من الشواهد الشعرية ما لم يعدّ ضمن العناوين الأربعة التالية (أي الشواهد اللغوية والنحوية والبلاغية والروائية)كالمجلد الثالث من تفسير الميزان عند قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الرعد/١٧) يستشهد فيه لتعريف المثل وحكمه بهذا البيت المتمثّل به لصخر:

أهمّ بأمر الحزم لا أستطيعه وقد حيل بين العير و النزوان

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٣، ص٦٤)

وأمّا ما لمسنا من الشواهد الشعرية المعدّدة في المباحث المعروفة الأدبية فنذكرها على سبيل الإشارة والمعرفة بها حسب الموارد التالية:

٢. الشواهد اللغوية

من المناهج التفسيرية المعتمدة عليها لدى العلامة هو التفسير اللغوي الذي يحوز المرتبة الأولى من بيانه للآيات و إبداء رأيه في ايضاح الكلمات وقد أفاد العلامة من مصادر لغوية كثيرة من مثل العين لخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، والمفردات للراغب الاصفهاني (ت٥٠٢هـ) ومجمع البيان للطبرسي (ت٥٤٨هـ)، والكشاف للزمخشري (ت٥٣٦هـ) والصحاح للجوهري (ت٣٩٣هـ)، ولسان العرب لابن منظور (ت٧١١هـ)، والمصباح المنير للفيومي (ت٧٧٠هـ)، والقاموس المحيط للفيروز آبادي (ت٨١٧هـ).

وكان من دأب العلامة في هذه الإفادات اللغوية أن يجتنب نقل الشواهد الشعرية لكنه أحياناً قد يرى من الضرورة الاستشهاد ببعض الأبيات إثباتاً لما يدلي برأيه أو رأي الآخرين. وأمّا التي يذكرها من الشواهد الشعرية فقد تكون من المصدر اللغوي نفسه الذي يعتمد عليه أو يذكرها بنفسه من غير ما يعتمد على مصدر من المصادر اللغوية. وأمّا ما نقل عن مصدر لغوي مصرّح به في الميزان فهو على نحو ما ورد من المفردات للراغب الاصفهاني عند قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ (الأعراف/٤٦) حيث قال العلاّمة فيه: «والسيماء العلامة قال الراغب: السيماء و السيمياء العلامة، قال الشاعر: «له سيمياء لا تشق على البصر»(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٨، ص١٢٣) وفي نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام/٢١) والشاهد فيه كما ينقله العلاّمة عن المفردات هو الفلاح بالمعنى الدنيوي والمقصود من الدنيوي هو: «الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا و هو البقاء و الغنى و العز و إياه قصد الشاعر بقوله:

أفلح بما شئت فقد يدرك ... بالضعف و قد يخدع الأريب

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٧، ص٤٥)

أو على نحو ما ذكره العلاّمة من المجمع من بيت شعر يستشهد فيه بكلمة «الحمل» عند قوله تعالى: (لِتَحْمِلَهُمْ)﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ (التوبة/٩٢) يقول فيه العلاّمة: «الحمل

إعطاء المركوب من فرس أو بعير أو غير ذلك تقول: حمله يحمله حملاً إذا أعطاه ما يحمل عليه قال:

أ لا فتــىً عنــده خفــان يحملــني		عليهمــا إنــني شـيخ علــى سـفر

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٩، ص٣٨١)

ونحو ما ذكره العلاّمة عند قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ (الكهف/١١) قال في المجمع: «ومعنى ضربنا على آذانهم سلطنا عليهم النوم ... قال قطرب: هو كقول العرب: ضرب الأمير على يد فلان إذا منعه من التصرف، قال الأسود بن يعفر و قد كان ضريرا:

ومــن الحــوادث لا أبالــك أنــني		ضـربت علـي الأرض بالأسـداد

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١٣، ص٢٦٦)

وفي نحو قوله تعالى : ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ﴾ (الإسراء/٧٥) حيث نقل في المجمع: «أن المراد بالضعف العذاب المضاعف ألمه و المعنى لأذقناك عذاب الدنيا و عذاب الآخرة، وأنشد قول الشاعر:

لمقتـــل مالـــك إذ بـــان مـــني		أبيــت الليــل في ضــعف ألــيم

(الطباطبائي، ج١٣، ص١٨٥)

وهناك موارد عديدة في الميزان نجد فيها الاستشهاد بأبيات شعرية إثباتاً للمعنى الذي يريده العلاّمة في تفسير بعض الكلمات الغريبة من غير ما يذكر مصدراً يعتمد عليه فذلك على نحو ما جاء في بيان «يظنون» عند قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (البقرة/٤٦) حيث قال فيه إنّه: «وضع الظن موضع العلم إشارة إلى أن الإنسان لا يتوقف على زيادة مئونة على العلم إن تنبه بأن له ربا يمكن أن يلاقيه ويرجع إليه وذلك كقول الشاعر:

فقلــت لهــم: ظنــوا بــألفي مــذحج		ســراتهم فــى الفارســي المســرد

وإنما يخوف العدو باليقين لا بالشك ولكنه أمرهم بالظن لأن الظن يكفيهم في الانقلاع عن المخالفة، بلا حاجة إلى اليقين حتى يتكلف المهدد إلى إيجاد اليقين فيهم بالتفهيم من غير اعتناء منه بشأنهم».(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١، ص١٥٤) وكذا ورد الظهور في معنى شاذ الاستعمال بمعنى الزوال في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ ﴾ (الروم/٧) وقال فيه العلامة: «و قيل: الظهور في الآية بمعنى الزوال واستشهد بقوله:

وعيرهـــا الواشـــون أنـــي أحبهـــا وتلـك شكاة ظـاهر عنـك عارهـا

والمعنى: يعلمون أمراً زائلاً لا بقاء له لكنه معنى شاذ الاستعمال»(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ١٦٤/١٦).كما أنّ الظهور جاء بمعنى الإزالة وذلك في قوله تعالى: (﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا ﴾ (الكهف/٢٢) ففي الميزان قال العلامة: «المراء الظاهر ما يذهب بحجة الخصم يقال: ظهر إذا ذهب، قال الشاعر: «وتلك شكاة ظاهر عنك عارها» والمعنى: «محاجّة ذاهبة بحجتهم».(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١٣، ص٢٨٩)

والذي ينبغي ذكره أنّ الشواهد اللغوية التي أُحصِيت في الميزان يبلغ عددها ١٦ بيتاً من الشعر وذلك في نحو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ ﴾ (الأعراف/٩٥) حيث احتمل العلاّمة في معنى «عَفَوا»: «أن يكون من العفو بمعنى إمحاء الأثر كقوله:

ربـع عفـاه الـدهر طـولا فـانمحى قد كاد من طول البلى أن يمسحا

فيكون المراد أنهم محوا بالحسنة التي أوتوها آثار السيئة السابقة».(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٨، ص٢٠٩)

وكذا الشواهد اللغوية عند قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ (الأعراف/٥٤) في الاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء عليه. (الطباطبائي، ج٨،ص١٥٩) وعند قوله تعالى: ﴿ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا ﴾ (الأعراف/٤٣) في الإرث بمعنى الأصل والبقية. (ج٨، ص١١٨) واليأس بمعنى العلم. (ج١١، ص٣٩٧) وفي الهمّ عند قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ

بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا ﴾ (يوسف/٢٤) إذا كان مقروناً بالمانع. (ج١١، ص١٤٠) وعند قوله تعالى: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ (الأنبياء/٩٥)في الحرام بمعنى الواجب.(ج١٤، ص٣٥٧)

٣. الشواهد النحوية

قد يلعب النحو دوراً بارزاً في المعنى الذي يرومه المفسّر خاصّة إذا كان الاهتمام به في التفسير يخلق معنى أدق وأنسب لسياق الآية بالإضافة إلى أنّ التفاسير بعضها معتمدة أساساً على المفاهيم الأدبية ولم يستثن في ذلك تفسير الميزان وقد أحصينا فيه الاستشهادات النحوية فبلغت ٩ موارد نحو ما ورد في قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن ﴾ (النساء/٤٦) من تقدير الموصوف الشائع عند العرب حيث قال العلامة فيه: «والتقدير: من الذين هادوا قوم يحرفون، أو من الذين هادوا من يحرفون» ثم استشهد بهذا البيت من ذي الرمة:

فظلوا ومنهم دمعه سابق له وآخر يشني دمعة العين بالمهل

يريد: ومنهم قوم دمعه أو ومنهم من دمعه. ونحو استشهاده عند قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ (التوبة/٩٧) بالبيت التالي في كلمة «أعاريب» جمعاً للأعراب وذلك ما ينقله عن الراغب في المفردات وهو يقول: «العرب ولد إسماعيل، والأعراب جمعه في الأصل، و صار ذلك اسما لسكان البادية ... وقيل في جمع الأعراب: أعاريب، قال الشاعر:

أعاريب ذوو فخر بإفك و ألسنة لطاف في المقال

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش:ج٩، ص٣٩٠)

هذا وقد يكون للمباحث النحوية بالغ الأثر في تقييم بعض القراءات الواردة في القرآن الكريم نحو ما روي من اختلاف القراءة في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ (الأنفال/٢٥) قال فيه العلامة: «قرأ علي والباقر (عليهما السلام) من أئمة أهل البيت وكذا زيد بن ثابت و الربيع بن أنس و أبو العالية على ما في المجمع: لتصيبن باللام ونون التأكيد الثقيلة، والقراءة المشهورة: لا تصيبن بلا الناهية ونون التأكيد الثقيلة».(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٩، ص٥٠) ثمّ يناقش العلامة آراء أخرى ذكرها

النحاة في إعراب الجملة إلى أن يذكر رأياً في «لا تصيبنّ» مع شاهد له نحوي في بيت من الشعر فيرفضه وذلك قوله: «وربما ذكر آخرون: «أن أصل لا تُصيبَنَّ» «لتصيبن» أشبعت فتحة اللام حتى تولدت الألف، وإشباع الفتحة ليس بعزيز في الشعر قال:

فأنت من الغوائل حين ترمي ومن ذم الرجال بمنتزاح

يريد: بمنتزح، والوجهان قلا يحمل على مثلهما كلامه تعالى».(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٩، ص٥١) والملفت للنظر أنّ البيت ذكر في المجمع في باب الحجة(الطبرسي، ١٣٧٢ش: ج٤، ص٨١٩) وقد اكتفى العلامة بذكر الشاهد من دون الإحالة إلى مصدره. وقد يذكر العلامة ما أخذ من المجمع من الشواهد كإثباته لما ورد من معنى الانتظار لكلمة «ناظرة» المتعدية بإلى في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ (القيامة/٢٣) أي تنتظر ثواب ربّها وقال فيه: «وقد اعترض على أخذ ناظرة بمعنى منتظرة بأن الانتظار لا يتعدى بإلى بل هو متعد بنفسه، وردّ عليه في مجمع البيان بالاستشهاد بقول جميل بن معمر:

و إذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك جدتني نعما

و قول الآخر:

إني إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغني الموسر

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٢٠، ص٢٠٤)

وهناك شواهد أخرى نحوية في الميزان لا نتفصّل فيها وذلك من مثل ما ورد من البيت الشاهد عن المجمع في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ (الزخرف/٦٠) في أنّ «مِن» بمعنى البدلية كما في قول الشاعر:

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على الطهيان

(الطباطبائي،١٣٧٢ش: ج١٨ص١٢٤)

أو ما ورد من البيت الشاهد عند قوله تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ (يس/٣٥)بأنّ الضمير في ثمره قد يجري مجرى اسم الإشارة كما في قول رؤبة:

فيها خطوط من سواد و بلق كأنه في الجلد توليع البهق

فقد روي أن أبا عبيدة سأله عن قوله «كأنه» فقال كان ذاك. (الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١٧، ص٨٩) وكذا الشاهد من البيت لقوله تعالى: (رَبِّ ارْجِعُونِ)(المؤمنون/٩٩) بأنّ الخطاب جمع وهو«يفيد تعدد الخطاب، والمعنى رب ارجعني ارجعني ارجعني كما قيل في قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

أي قف قف نبك.(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١٥، ص٧١)وكذا ما نقل مصرعٌ عن بيت شعر من المفردات للراغب كشاهدٍ علىٰ كلمة«ذات» في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ (الأنفال/١) بقوله: «وبئري ذو حفرت وذو طويت».(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٩، ص٣) وورد عند قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ لَكُمُ﴾ (المائدة/١٩) شاهد من البيت في «وقوع الفصل الطويل بين المتعلق والمتعلق به وهو شائع في اللسان، قال:

قرّبا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيال

قرّبا مربط النعامة مني إن بيع الكريم بالشسع غال

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٥، ص٢٧٢)

وهناك بيت شعر ذاع الاستشهاد به عند النحاة في باب تأخر الخبر وجوباً:

بنونا بنو أبناءنا وبناتنا بنوهنّ أبناء الرجال الأباعد

(راجع: ابن هشام، ١٩٧٩، ج١، ص ٢٠٦)

وذكره العلاّمة من غير مرّة في مواضع من تفسيره من دون الاعتماد عليه نحويّاً كما ذكره عند قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾(حجرات/١٣)(الطباطبائي،١٣٧٢ش: ج٢، ص٢٨٢)وعند قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى/٢٣)(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١٨، ص٤٤) في معنى القرابة عند العرب «على أن العرب ما كانت تعتني بالقرابة من جهة النساء ذاك الاعتناء وفيهم القائل: بنونا بنو أبناءنا.... و إنما هو الإسلام أدخل النساء في القرابة وساوى بين أولاد البنين وأولاد البنات».(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١٨، ص٤٤)

كما وناقش الموضوع نفسه في الردّ على من استشهد بهذا البيت من الشعر في أنّ لفظ ابن لا يجري عند العرب على أولاد البنات، في بحث تحت عنوان: «أنّ الإسلام يعدّ أولاد البنات أولاداً وذرية».(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٧، ص٢٧٧) وكذا نجد المناقشة عند من استشهد بالبيت واعتقد أنّ حديث رسول الله (ص): «ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا» ... إطلاق تشريفي».(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٤، ص٣٣١)

٤. الشواهد البلاغية

إنّ البلاغة تحظى بمرتبة عالية في تفسير الميزان ولها حلبة واسعة لا يمكن الإلمام بها في كرّاسة موجزة إذ جرى فيها العلامة واسعاً عند تفسيره للآيات خاصّة في الصور البيانية من أنواع التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية ولكن الذي ينبغي التنبيه إليه ههنا هو أنّ العلاّمة له آراء بديعة ينقض أحياناً ما اشتهر عند البلاغيين من بعض الآراء البلاغية في الآيات نذكر منها على سبيل المثال مناقشته في تحليل الصورة التشبيهية عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ (البقرة/٢٧٥) وذلك أنّه اشتهرت العبارة لدى علماء البلاغة بالخلاف على مقتضى الظاهر وأخذوها شاهداً بلاغيّاً في التشبيه المقلوب وقالوا فيه:

«فإن مقتضى الظاهر أن يقال إنما الربا مثل البيع إذ الكلام في الربا لا في البيع فخالفوا لجعلهم الربا في الحل أقوى حالاً من البيع وأعرف به».(الخطيب القزويني، ١٩٩٨: ص٢٢٧)كما أنّه في جواهر البلاغة -وهو كتاب جامعي- يشير إلى الموضوع نفسه بقوله: «أنّ الربا مثل البيع عكسوا ذلك لإيهام أنّ الرّبا عندهم أحلّ من البيع، لأنّ الغرض الرّبح وهو أثبت وجوداً في الرّبا منه في البيع، فيكون أحقّ بالحلّ عندهم».(احمد الهاشمي، ١٣٥٨: ص٢٨٧) وعندما نأتي إلى تفسير الميزان نجد الرأي فيه يختلف باعتبار سياق الآية ودلالة خبط المرابين وذلك أنّ العلامة يرفض التشبيه أوّلا:كونه مقلوباً بأن يجعل الربا أصلاً ويشبه به البيع مبالغة كما ذهب إليه البعض واستشهدوا لذلك بالبيت التالي:

ومهمـــــه مغـــــبرّة أرجـــــاؤه كـــأنّ لـــون أرضـــه سمـــاؤه

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٢، ص٤٤٠)

ويرفض التشبيه ثانياً: على «ما ذكره آخرون أنّه يجوز أن يكون التشبيه غير مقلوب بناءاً علىٰ ما فهموه: أنّ البيع إنّما حلّ لأجل الكسب والفائدة، وذلك في الربا متحقّق وفي غيره موهوم».(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٢، ص٤٤٠) وأمّا رأيه الذي يرضاه ويبديه بنفسه فهو قوله:

«قد تقدم الوجه في تشبيه البيع بالربا دون العكس بأن يقال: إنما الربا مثل البيع فإن من استقر به الخبط والاختلال كان واقفا في موقف خارج عن العادة المستقيمة، والمعروف عند العقلاء والمنكر عندهم سيان عنده، فإذا أمرته بترك ما يأتيه من المنكر والرجوع إلى المعروف أجابك- لو أجاب- إنّ الذي تأمرني به كالذي تنهاني عنه لا مزية له عليه، ولو قال: إن الذي تنهاني عنه كالذي تأمرني به كان عاقلا غير مختل الإدراك فإن معنى هذا القول: أنه يسلم أن الذي يؤمر به أصل ذو مزية يجب اتباعه لكنه يدعي أن الذي ينهى عنه ذو مزية مثله، ولم يكن معنى كلامه إبطال المزية وإهماله كما يراه الممسوس، وهذا هو قول المرابي المستقر في نفسه الخبط: إنما البيع مثل الربا، ولو أنه قال: إنّ الربا مثل البيع لكان راداً على الله جاحداً للشريعة لا خابطاً كالممسوس».(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٢، ص٤٣٩)

هذا والعلامة يفضّل المجاز علىٰ الحقيقة في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (يوسف/٣٣) فيعتبره كناية دحضاً لما ذهب إليه البعض بأنّ يوسف يطلب الضغط على نفسه بالسجن فيقول: «فإنما هو تمايل قلبي إلى السجن على تقدير تردد الأمر وكناية عن النفرة والمباغضة للفحشاء وليس بسؤال منه للسجن كما قال (عليه السلام):

الموت أولى من ركوب العار والعار أولى من دخول النار

لا كما ربما يظن أنه سأل بذلك السجن فقضي له به».(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٦، ص٢٩٤) ثمّ يأتي العلامة بذكر دلائل عقلية مستنبطة من معان قرآنية نصفح الذكر عنها لعدم صلة الموضوع بالبحث. وكذا الاستشهاد في قوله تعالى: ﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ ﴾ (البقرة/٢٥٨)بالبيت التالي وهو من قبيل قول القائل: أساء إلي فلان لأني أحسنت إليه

يريد: أن إحساني إليه كان يستدعي أن يحسن إلي لكنه بدل الإحسان من الإساءة فأساء إلي:

جـزى بنـوه أبـا الغـيلان عـن كـبر وحسـن فعـل كمـا يجـزى سـنمار

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٢، ص٣٧١)

واعتقد العلامة في الآية الاستعارة التبعيّة على مثال ما ورد في لام التعليل عند قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ (القصص/ ٨) لكن الاستعارة ههنا مقدّرة على تقدير اللام كما قال فيه العلامة: «فالجملة أعني قوله: أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ بتقدير لام التعليل وهي من قبيل وضع الشيء موضع ضده للشكوى و الاستعداء ونحوه، فإن عدوان نمرود وطغيانه في هذه المحاجة كان ينبغي أن يعلل بضد إنعام الله عليه بالملك، لكن لما لم يتحقق من الله في حقه إلا الإحسان إليه وإيتاؤه الملك فوضع في موضع العلة فدل على كفرانه لنعمة الله فهو بوجه كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ (الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٢، ص٣٧١)

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (يوسف/٢١) فإنّ فيه للعلامة بيان بديع لتشبيه الشيء بنفسه في كلمة «كذلك مكنا»، «ليدل به على غزارة الأوصاف المذكورة له و ليس من القسم المذموم من تشبيه الشيء بنفسه كقوله:

كأننـــا و المـــاء مـــن حولنـــا قـــوم جلـــوس حـــولهم مـــاء

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١١، ص١٢٠)

ثمّ يذكر العلامة من بلاغة هذا النوع من التشبيه بأنّه «تلطف في البيان بجعل الشيء مثل نفسه بالتشبيه دعوى ليلفت به ذهن السامع إلى غزارة أوصافه و أهميتها و تعلق النفس بها كما هو شأن التشبيه». (الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١١، ص١٢٠)وكذا يذكر المراد منه «أنّ ما فعلنا به من التمكين في الأرض كان يماثل هذا الذي وصفناه و أخبرنا عنه فهو يتضمن من الأوصاف الغزيرة ما يتضمنه ما حدثناه». (الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١١، ص١٢٠) ويستشهد على مثل هذا التشبيه بما ورد في القرآن الكريم من نحو قوله

تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ (الشورى/١١) وقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ (الصافات/٦١) (الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١١، ص١٢٠)

٥. شواهد شعرية في مدح الرسول(ﷺ)

هناك شواهد شعرية يتمدّح بها الرسول (ﷺ) في مواضع مختلفة من تفسير الميزان علىٰ نحو ما ورد عند قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ (الصف/ ٦) بمديحة عن حسان بن ثابت وهو يقول:

صلى الإله ومن يحفّ بعرشه والطيبون علىٰ المبارك أحمد

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١٩، ص٢٩٢)

والشاهد في ذكر «أحمد» كما في أشعار من أبي طالب في قوله:

وقالوا لأحمد أنت امرؤ خلوف اللسان ضعيف السبب

ألا إن أحمد قد جاءهم بحق و لم يأتهم بالكذب

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١٩، ص٢٩٢)

ومن شعره فيه (ﷺ) وقد سمّاه باسمه الآخر «محمد»:

أ لم تعلموا أنا وجدنا محمدا نبياً كموسى خطّ في أوّل الكتب

وقال العلاّمة في الشاهد المستفاد من البيت: «ويستفاد من البيت أنهم عثروا على وجود البشارة به ص في الكتب السماوية التي كانت عند أهل الكتاب يومئذ ذاك».(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١٩، ص٢٩٢)

وله في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ (النصر/١) ذكرٌ لأبيات أنشدها عمرو بن سالم بعد صلح حديبية عند دخوله المدينة علىٰ الرسول (ﷺ) وهي:

لا همّ يا ربّ إنّي ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا

إنّ قريشاً أخلفوك الموعدا و نقضوا ميثاقك المؤكّدا

وكذا في الموضوع نفسه عن عمرو بن سالم ثمانية أبيات ذكرها العلامة عند قوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ ﴾ (التوبة/١٢) لا نعاود ذكرها. (الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٩، ص١٨٩)

ولعامر بن الأكوع الشاعر عند مرافقته الرسول (ﷺ) في خيبر مديحة مذكورة في ثلاثة أبيات وهي:

لا هم لو لا أنت ما حجينا و لا تصدقنا و لا صلينا
فاغفر فداء لك ما اقتنينا و ثبت الأقدام إن لاقينا
و أنزلن سكينة علينا إنا إذا صيح بنا أتينا
وبالصياح عوّلوا علينا (الطباطبائي، ج١٨، ص٣٢٠)

كما أنّ في الميزان إشارة إلى رأس قصيدة أنشدها أعشى بني قيس وهو خرج إلى رسول الله (ﷺ) يريد الإسلام فقال يمدح رسول الله (ﷺ):

أ لم تغتمض عيناك ليلة أرمدا و بت كما بات السليم مسهدا

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٦، ص١٤٣)

ولعباس بن عبد المطلب ثلاثة أبيات ينقلها العلاّمة عن المجمع والأبيات أنشدها بعد فتح مكة منها هذا البيت:

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة و قد فر من قد فر عنه فأقشعوا

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٩، ص٢٤٠)

وفيه عند قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ٩ ﴾ (يس/٩) أنّه: «قال علي بن أبي طالب (عليه السلام) يذكر مبيته على الفراش ومقام رسول الله ص في الغار ثلاثاً نظماً:

وقيت بنفسي خير من وطء الحصى ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
محمد لما خاف أن يمكروا به فوقاه ربي ذو الجلال من المكر
وبت أراعيهم متى ينشرونني وقد وطنت نفسي على القتل والأسر
و بات رسول الله في الغار آمنا هناك وفي حفظ الإله وفي ستر
أقام ثلاثا ثم زمت قلائص قلائص يفرين الحصى أينما تفري

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٩، ص٨٩)

٦. شواهد شعرية في أمور أخرى

وهناك شواهد شعرية لها صلة بشأن نزول بعض الآيات أوردها العلاّمة في الميزان فرأينا أن لا ننصرف عنها ولها قيمتها في مكانها من أسباب النزول علىٰ نحو ما ذكر عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الأنفال/٣٦) حيث قال فيه العلاّمة نقلاً عن الدر المنثور أنه: «نزلت في أبي سفيان بن حرب- استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش من بني كنانة- يقاتل بهم رسول الله (ﷺ) سوى من استجاش من العرب. فأنزل الله فيه هذه الآية. وهم الذين قال فيهم كعب بن مالك رضي الله عنه:

وجئنا إلى موج من البحر وسطه ... أحابيش منهم حاسر و مقنع
ثلاثة آلاف و نحن نصية ... ثلاث مئين إن كثرن فأربع

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٩، ص٨٩)

وكذا قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً ﴾ (أعراف/٢٨) ففيه «إشارة إلى ما كان معمولاً عند أهل الجاهلية من الطواف بالبيت الحرام عراة يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا ولا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب، ونقل عن الفراء أنهم كانوا يعملون شيئا من سيور مقطعة يشدونهم على حقويهم يسمى حوفاً و إن عمل من صوف سمي رهطا وكانت المرأة تضع على قبلها نسعة أو شيئاً آخر فتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... و ما بدا منه فلا أحله

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٨، ص٧١)

وكذا ورد البيت نفسه في قوله تعالى: ﴿ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (الأعراف/٣١)(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٨، ص٨٧)

هذا «وقد ورد ذكر ذي القرنين والافتخار به في عدّة من أشعار الحميريين وبعض شعراء الجاهلية وذلك نحو ما قال الأعشىٰ:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاويا ... بالجنو في جدث أشم مقيما

وقول بعض الحميريين:

قد كان ذو القرنين جدي مسلما ... ملكا تدين له الملوك و تحشد
بلغ المشارق و المغارب يبتغي ... أسباب أمر من حكيم مرشد
فرأى مغيب الشمس عند غروبها ... في عين ذي خلب و ثأط حرمد

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١٣، ص٤١٥)

وفي ذي القرنين أبيات أخرى للنعمان بن البشير، والحارثي، وابن أبي ذئب الخزاعي ذكرها العلامة في الميزان.(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١٣، ص٤١٧؛ وراجع: ج١٣، ص٤٠٥)

وفي قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ (الكهف/٩) وقد ورد «أن الرقيم اسم قرية بالقرب من عمان كان فيها قصر ليزيد بن عبد الملك وقصر آخر في قرية أخرى قريبة منها تسمى الموقر وإليهما يشير الشاعر بقوله:

يـــزرن علـــى تنانيـــه يزيـــدا بأكنـــاف المـــوقر و الـــرقيم

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١٣، ص٣٢٠)

وهناك أبيات من الشعر لثلاثة أئمّة من المعصومين (عليهم السلام) منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران/٣١) فعن الصادق (عليه السلام) قال: ما أحب الله من عصاه ثم تمثل بقوله:

تعصـي الإلـه و أنـت تظهـر حبـه هـذا لعمـري في الفعـال بـديع

لـو كـان حبـك صـادقاً لأطعتـه إنّ المحـبّ لمـن يحـب مطيـع

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج٣، ص١٧٥)

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ (الحجرات/١١) أنّه تمثل الإمام الرضا(عليه السلام) بأبيات من الشعر لأبي العتاهية فعن الراوي قال: «سمعت الرضا (عليه السلام) يوماً ينشد و قليلاً ما كان ينشد شعراً:

كلنـا نأمـل مـدا في الأجـل و المنايـا هـن آفـات الأمـل

لا يغرنـك أباطيـل المنـى و الزم القصد و دع عنك العلل

إنمـا الـدنيا كظـل زائـل حـل فيـه راكـب ثـم رحـل

فقلت: لمن هذا أعز الله الأمير؟ فقال: لعراقي لكم- قلت: أنشدنيه أبو العتاهية لنفسه- فقال: هات اسمه ودع هذا، إن الله سبحانه يقول: «وَ لا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ» ولعل الرجل يكره هذا».(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١٨، ص٣٦٢)

ولعليّ (عليه السلام) أبيات من الشعر ذكرها العلامة في الميزان بمناسبات مختلفة ذكرنا بعضها ونكتفي هنا بما ارتجز الإمام علي (عليه السلام) رداً على المرحب في خيبر فضربه وفلق رأسه فقلته وهذا البيت له:

أنـا الـذي سمـتني أمـي حيـدرة كليـث غابـات كريـه المنظـرة

أوفيهم بالصاع كيل السندرة

(الطباطبائي، ١٣٧٢ش: ج١٨، ص٣٢٢)

وهناك أبيات شعرية تتعلّق بالمرأة والمتعة؛ والمرأة وعبادتها الأصنام؛ والمرأة والقرابة؛ والمرأةوتحقيرها(ر.ك: الطباطبائي،ج٣، ص٢٨٠؛ وج٤،ص٣١٨؛ وج٤،ص٣١٣؛ وج٢، ص٢٥١؛ وج٢، ص٢٨١)

الخاتمة

-إنّ الميزان مع أنّه غير مشهور كتفسير أدبي ولكنّ له جرياً واسعاً في الأدب كاللغة والبلاغة والنحو والصرف فمن أماراته الشواهد الشعرية في المجالات المختلفة.

- ممّا يبدو أن أكثر ما أورد العلامة في تفسيره الميزان من الشواهد الشعرية يعتمد على اللغة حيث ناهز عدد الشواهد فيها ١٦ بيتاً.

- إنّ الشواهد النحوية في الميزان يقرب عددها من ٩ أبيات ثمّ الشواهد الإبلاغية يقارب عددها ٦ أبيات شعرية بالإضافة إلى أنّه نعتقد بأنّ المجال في الدراسة الأدبية لتفسير الميزان واسع، يستدعي دراسة مستقلّة في كلّ الفروع الأدبية خاصة اللغة والنحو والبلاغة.

- إنّ الشواهد الشعرية في مديحة الرسول (ﷺ) في كتاب تفسير الميزان تحتلّ مرتبة لا تقلّ عن الشواهد اللغوية الموجودة فيه.

- للعلاّمة آراء بديعة في الفنون الأدبية ومنها الشواهد الشعرية جديرة بالبحث والدراسة للباحثين.

قائمة المصادر و المراجع

-الخطيب القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين،(١٩٩٨)، **الإيضاح في علوم البلاغة**، الطبعة الرابعة، بيروت، دار إحياء العلوم.

- الطباطبائي، السيد محمد حسين،(١٣٧٢ش)، **الميزان في تفسير القرآن**، ٢٠ج، الطبعة الخامسة، طهران، دار الكتب الإسلامية.

- الطبرسي، فضل بن الحسن، (١٣٧٢ش)، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، ١٠ج، طهران، انتشارات ناصر خسرو.

- الهاشمي بك، السيد أحمد، (١٣٥٨)، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، الطبعة العاشرة، مصر، مطبعة الاعتماد.

-ابن هشام الأنصاري أبو محمد عبدالله، (١٩٧٩)، **أوضح المسالك إلى ألفية إبن مالك**، الطبعة الخامسة، بيروت، دار الجيل.